شفرة هورس

في رحلتهما إلى مدينة الإسكندرية، برفقة طفلتهما الصغيرة نهاد، لم يكن محمود يتخيل أنه سيفقد زوجته وابنته معًا دفعة واحدة.

في جولتهما الأولى ليلًا بساحة المدينة، جذبها سحر متجر أعشاب أنيق وأخاذ بألوانه الزاهية، ونور مصابيحه الحمراء الخافتة الإضاءة، ورائحة الأعشاب البرية تستفز كل الحواس والذكريات، حتى الغابرة منها، وتدعوك لاقتحام المتجر.

هي رائحة الحناء من فجرت ذكرياتها، دخلت المتجر وصعدت الطابق العلوي حين دلَّها البائع على وجود الحناء هناك، تاركةً زوجها مع طفلتهما خارجًا قرب المدخل.

كانت رضيعة وديعة في شهرها السادس، يجر والدها عربتها وهي نائمة بداخلها كملاكٍ صغير بأجنحة بيضاء، حتى ظهر فجأة شخص يعزف على قيثارة كلاسيكية ويسأل الناس إلحافًا، مد محمود يده في جيبه وأخرج درهمين، وناولهما للسائل المتربص بهما، وترجاه أن يُوقِف عزفَه ويرحل من أمامه، كي لا يوقظ طفلته، لكن الرضيعة نهاد كانت قد استيقظت بالفعل وأطلقت صرخة مدوية، حملها بين ذراعيه في محاولة يائسة لإسكاتها، لكن دون جدوى.

- أين أنتِ يا منال؟ يسأل في جوفه عن زوجته ويتعجب تأخرها!

ارتفع صراخ الصغيرة وأبت أن تسكت، رغم محاولات والدها اليائسة لتهدئتها، لاحظت سيدة أجنبية هذا المشهد فعرضت مساعدتها، طلبت من الزوج حَمل الرضيعة، فرضخ لطلبها بعدما اطمأن إليها من خلال تعابير وجهها البريء الذي كشف عن إعجاب شديد بالصغيرة نهاد، سألته عن أمها، فأجابها بأنها دخلت المتجر ولم تعد بعد، أخذ هاتفه يحاول جاهدًا مهاتفتها، لكنه لا يرن وكأنه مقفل على غير عادتها!

كانت الرضيعة قد صمتت في يد المرأة الأجنبية البريئة الملامح، يئس محمود من الانتظار وانقطاع أمله من الهاتف، اقترحت عليه المرأة الأجنبية أن يذهب للبحث عن زوجته في الطابق العلوي بينما تعتني هي بطفلته إلى حين عودته.

- أوتفعلين هذا من أجلي؟ هل أثق بك؟

- وهل توحي لك ملامحي بأنني امرأة خبيثة؟ إنه عمل إنساني، أفعل هذا من أجل الطفلة فقط.

- معك حق، لقد ارتاح لك قلبي منذ أن رأيتك، كما أن الصغيرة نهاد قد اطمأنت إليك على ما يبدو! حسنًا لابأس، لن أتأخر، هي دقيقة واحدة فقط وأعود فورا.

ترك الصغيرة بين أحضان المرأة الأجنبية وراح يبحث عن زوجته الغائبة، صعد الطابق العلوي فلم يجدها ثم عاد يبحث في الأسفل لا أثر لها! غريب!

صعد مجددا فلم يجد إلا زبونين وثالثهما البائع صاحب المحل، سأله عن زوجته واصفًا له إياها، فأجابه بأنها غادرت منذ مدة وأخذت معها الحناء ودفعت ثمنها.

- ماذا! هل أنت متأكد؟ كنت عند مدخل المتجر طوال الوقت، لم أبرح مكاني أنتظر خروجها، كيف يعقل أن تخرج دون أن أراها؟

- ربما قصدت متجرًا آخرًا.

- هل يوجد باب ثاني في هذا المتجر؟

- لا.. هو باب واحد فقط.

- لا يمكنها أن تقصد محل آخر دون أن نذهب معًا، أو على الأقل كانت ستعلمني بذلك! غريب فعلا! هذا ليس من عادتها! تعرف أن الطفلة بحاجة إليها.. الطفلة، الطفلة.. آه تركتها مع تلك المرأة.

تفصد جبينه عرقًا، فأسرع ليتفقد طفلته.. نزل إلى مدخل المتجر عند الباب فلم يجد أحدًا، لا الطفلة ولا المرأة الأجنبية ولا العربة كذلك، سأل الشبان الواقفين أمام باب المتجر إن كانوا قد رأوا امرأة تحمل طفلة رضيعة في عربة واصفًا لهم شكل المرأة والعربة والطفلة.. أجابه أحدهم بأنه رأى امرأة بتلك المواصفات، تركب سيارة "تويوتا" سوداء كبيرة الحجم مع زوجها وسمعه يقول لها من أين أتيت بالفتاة؟

- ماذا ! هل أنت متأكد؟

- أجل لقد رأيتهما بأم عيني.

- يا ويلتي، يا ويلتي.

صرخ محمود بطريقة هيستيرية وأمسك برأسه يبكي طفلته وزوجته.

اجتمع الناس حوله فحضرت الشرطة، وأخذت أقوال الزوج والبائع وأقوال الشهود، وأخذت شريط كاميرا المتجر أيضا.

عند إعادة الشريط المصور، تبينت عملية الخطف التي قامت بها السيدة الأجنبية، وسرعان ما تم العثور على عنوان سكانها من خلال رقم لوحة سيارة زوجها التي ظهرت على الشاشة، فتم إلقاء القبض عليها هي وزوجها واستعاد محمود طفلته، بينما زوجته لا تزال مفقودة وهاتفها مقفل.

أصر محمود على أن صاحب المحل هو خاطفها مستدلًا بشريط الفيديو الذي لم تظهر فيه زوجته وهي تخرج من المتجر، بينما ظهرت على الشريط وهي تدخله، كما أنه أضاف بأن زوجته تركت محفظة نقودها معه، بينما يصرح صاحب المتجر بأنها دفعت ثمن الحناء، ويصر محمود على أنها لا تحمل معها مالًا.. ألحَّ محمود أيضا على الشرطة كي تفتش المتجر وتتأكد من أن زوجته غير مختطفة هناك عند صاحب المتجر.

وافقت الشرطة بعدما أخذت إذن المدعي العام، ذهب المحقق مع فرقته قصد التفتيش، وأصر محمود على مرافقتهم بعدما ترك طفلته بين أيدي شرطية هناك ترعاها، تفقدوا المتجر وفتشوه شبرًا شبرًا، لكن لا أثر لزوجة محمود! يئس المحقق وفرقته وهبُّوا للانصراف، فاعترض محمود وأَبَى أن ينصرف دون زوجته، دخل المرحاض واجمًا ليغسل

وجهه، فتح صنبور الماء وغسل وجهه ثم نظر إلى المرآة يسأل نفسه: أين أنت يا منال.. أين أنت؟ فسمع بعدها طرقًا خفيفًا متتاليًا يتقطع ويعاود الكرة بنفس الإيقاع، منبعثًا من لا مكان، وكأنها شفرة مورس! تعجب الأمر!

- من هناك؟ هل يوجد أحد هنا؟ سمع بعد سؤاله طرقة.

- من هناك؟ طرقة استجابة أخرى.

- هل هناك أحد؟ طرقة أخرى.

- هل هذه أنت يا منال؟ سمع بعدها طرقتي تأكيد.

- هل أنت هنا في المرحاض؟ سمع بعدها طرقتين متتاليتين.

أعاد طرح السؤال فتكرر الأمر.

- هل تريني؟ فسمع ثلاث طرقات.

بعد ذلك أيقن أنها زوجته تحاول التواصل معه بهذه الطريقة، فكر مليًا وقال بما أنها تراني لن يكون ذلك إلا من خلال المرآة المغروسة في الجدار، استدعى محمود المحقق وأخبره بالأمر وكان صاحب المتجر حاضرًا يترقب، أخبر محمود المحقق بأن زوجته توجد خلف جدار المرآة.

- ما الذي تقوله يا رجل! هل فقدت عقلك؟

- يبدو أنك مُصِّر على أن لا تصدقني! لكنني سأثبت لك صحة ادعائي. اسمع بنفسك، ثم بدأ يتحدث عبر المرآة مع زوجته.

- هل أنت هناك يا منال؟ فتطرق طرقتين ويستغرب المحقق وفريقه.

- ويسأل محمود مجددا، هل أنت خلف المرآة؟ فتطرق مرة أخرى طرقتين إيجابًا.

عندما رأى صاحب المتجر ذلك، لاذ بالفرار فلحقه أحد أفراد الشرطة ووضعه تحت القيد، وعاد المحقق يفحص الجدار الذي يوجد به المرآة العجيبة فوجد بعد فحصه؛ أنه باب على شكل جدار، فأرغم صاحب المتجر على فتح الباب السري، فأدار هذا الأخير كارهًا المرآة رأسًا على عقب، فانفتح الباب وخرجت الزوجة خائفة مذعورة، مكممة الفم، مقيدة اليدين والرجلين لم ينفعها إلا ذلك الكرسي الحديدي الذي كانت تجلس عليه وهي مقيدة خرساء، ولولا ذلك الأنبوب أيضًا الذي يوصل الماء إلى الصنبور؛ لما استطاعت الاتصال بزوجها الذي دخل المرحاض صدفة.

عادت الزوجة إلى زوجها، والطفلة إلى والديها، وأُودع الخاطفان السجن بعدما تبين أنهما يشتغلان في تجارة البشر، ولم تُلغَى الرحلة بعدما وعد الزوجان بعضهما بعدم الافتراق وعدم الثقة في الغرباء، ولولا إصرار الزوج وصلابة الزوجة لأُقفلت القضية، لكن عندما تزداد المسؤولية ترتفع قوة التحمل وتتحقق المعجزات.

بقلم / محمد العودي